أحاديث إصلاح القلوب

(٤٨)

علاج حر المصيبة

الحمد لله ربِّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله؛ صلَّى الله وسلَّم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمَّا بعد:

فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِامْرَأَةٍ تَبْكِي عِنْدَ قَبْرٍ، فَقَالَ: «**اتَّقِي اللهَ وَاصْبِرِي، قَالَتْ: إِلَيْكَ عَنِّي فَإِنَّكَ لَمْ تُصَبْ بِمُصِيبَتِي، وَلَمْ تَعْرِفْهُ، فَقِيلَ لَهَا: إِنَّهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَتَتْ بَابَ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمْ تَجِدْ عِنْدَهُ بَوَّابِينَ، فَقَالَتْ: لَمْ أَعْرِفْكَ، فَقَالَ: إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى**»[(١)]. متَّفق عليه.

وعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ إِحْدَى بَنَاتِهِ تَدْعُوهُ وَتُخْبِرُهُ أَنَّ صَبِيًّا لَهَا -أَوِ ابْنًا لَهَا- فِي الْمَوْتِ، فَقَالَ لِلرَّسُولِ: «**ارْجِعْ إِلَيْهَا فَأَخْبِرْهَا: إِنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ وَلَهُ مَا أَعْطَى وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى، فَمُرْهَا فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ**». فَعَادَ الرَّسُولُ فَقَالَ: إِنَّهَا قَدْ أَقْسَمَتْ لَتَأْتِيَنَّهَا. قَالَ: فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ وَقَامَ مَعَهُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ

---

(١) رواه البخاريُّ (١٢٨٣)، ومسلم (٩٢٦).

وَانْطَلَقْتُ مَعَهُمْ، فَرُفِعَ إِلَيْهِ الصَّبِيُّ وَنَفْسُهُ تَقَعْقَعُ كَأَنَّهَا فِي شَنَّةٍ فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، فَقَالَ لَهُ سَعْدٌ: مَا هَذَا يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ، وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ**»(١). متَّفق عليه.

هذه الحياة الدُّنيا دار ابتلاء، وكلُّ امرىء عُرضة فيها للابتلاء، فما مُلئ بيتٌ فرحة إلَّا ومُلئ ترحة، وما مُلئ بيتٌ بالسُّرور إلَّا ومُلئ بالأحزان، وما من إنسان إلَّا وهو مبتلى ولا بُدَّ، كما قال ربُّنا جلَّ في علاه: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾، وهذه الآيات الكريمات تهيئ المسلم التَّهيئة الإيمانيَّة الَّتِي ينبغي أن يكون عليها عندما يبتلى سواء في صحَّته أو في ماله أو في ولده، أو في أيِّ أمر من أموره.

قال الشَّيخ عبد الرَّحمن السِّعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أخبر تعالى: أنَّه لا بُدَّ أن يبتلي عباده بالمحن، ليتبيَّن الصَّادق من الكاذب، والجازع من الصَّابر، وهذه سُنَّته تعالى في عباده؛ لأنَّ السَّرَّاء لو استمرَّت لأهل الإيمان، ولم يحصل معها محنة، لحصل الاختلاط الَّذِي هو فساد، وحكمة الله تقتضي تمييز أهل الخير من أهل الشَّرِّ. هذه فائدة المحن، لا إزالة ما مع المؤمنين من الإيمان،

---

(١) رواه البخاريُّ (١٢٨٤)، ومسلم (٩٢٣).

ولا ردّهم عن دينهم، فما كان الله ليضيع إيمان المؤمنين، فأخبر في هذه الآية: أنَّه سيبتلي عباده ﴿بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ﴾ من الأعداء ﴿وَٱلۡجُوعِ﴾ أي: بشيء يسير منهما؛ لأنَّه لو ابتلاهم بالخوف كلِّه، أو الجوع، لهلكوا، والمحن تُمَحِّص لا تهلك.

﴿وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ﴾ وهذا يشمل جميع النَّقص المعتري للأموال من جوائح سماويَّة، وغرق، وضياع، وأخذ الظَّلمة للأموال من الملوك الظَّلمة، وقطَّاع الطَّريق وغير ذلك.

﴿وَٱلۡأَنفُسِ﴾ أي: ذهاب الأحباب من الأولاد، والأقارب، والأصحاب، ومن أنواع الأمراض في بدن العبد، أو بدن مَن يحبُّه، ﴿وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي: الحبوب، وثمار النَّخيل، والأشجار كلِّها، والخضر ببرد، أو برد، أو حرق، أو آفة سماويَّة، من جراد ونحوه.

فهذه الأمور لا بدَّ أن تقع، لأنَّ العليم الخبير، أخبر بوقوعها، فتقع كما أخبر، وإذا وقعت انقسم النَّاس قسمين: جازعين وصابرين، فالجازع، حصلت له المصيبتان، فوات المحبوب، وهو وجود هذه المصيبة، وفوات ما هو أعظم منها، وهو الأجر بامتثال أمر الله بالصَّبر، ففاز بالخسارة والحرمان، ونقص ما معه من الإيمان، وفاته الصَّبر والرِّضا والشُّكران، وحصل [له] السَّخط الدَّالُّ على شدَّة النُّقصان.

وأمَّا مَن وفَّقه الله للصَّبر عند وجود هذه المصائب، فحبس نفسه عن التَّسخُّط، قولًا وفعلًا واحتسب أجرها عند الله، وعلم أنَّ ما يدركه من الأجر بصبره أعظم من المصيبة الَّتِي حصلت له، بل المصيبة تكون نعمة في حقِّه؛ لأنَّها صارت طريقًا لحصول ما هو خير له وأنفع منها، فقد امتثل أمر الله، وفاز بالثَّواب، فلهذا قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي: بشِّرهم بأنَّهم يُوَفَّوْن أجرهم بغير حساب.

فالصَّابرون، هم الَّذِين فازوا بالبشارة العظيمة، والمنحة الجسيمة، ثمَّ وصفهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ﴾ وهي كلُّ ما يؤلم القلب أو البدن أو كليهما ممَّا تقدَّم ذكره.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ﴾ أي: مملوكون لله، مُدَبَّرون تحت أمره وتصريفه، فليس لنا من أنفسنا وأموالنا شيء، فإذا ابتلانا بشيء منها، فقد تصرَّف أرحم الرَّاحمين، بمماليكه وأموالهم، فلا اعتراض عليه، بل من كمال عبوديَّة العبد، علمه، بأنَّ وقوع البليَّة من المالك الحكيم، الَّذِي أرحم بعبده من نفسه، فيوجب له ذلك، الرِّضا عن الله، والشُّكر له على تدبيره، لما هو خير لعبده، وإن لم يشعر بذلك، ومع أنَّنا مملوكون لله، فإنَّا إليه راجعون يوم المعاد، فمجاز كلَّ عامل بعمله، فإن صبرنا واحتسبنا وجدنا أجرنا موفورًا عنده، وإن جزعنا وسخطنا، لم يكن حظُّنا إلَّا السَّخط وفوات الأجر، فكون

العبد لله، وراجع إليه، من أقوى أسباب الصَّبر.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالصَّبر المذكور ﴿عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ أي: ثناء وتنويه بحالهم ﴿وَرَحۡمَةٞۖ﴾ عظيمة، ومن رحمته إيَّاهم، أن وفَّقهم للصَّبر الَّذِي ينالون به كمال الأجر، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ الَّذِين عرفوا الحقَّ، وهو في هذا الموضع علمهم بأنَّهم لله، وأنَّهم إليه راجعون، وعملوا به وهو هنا صبرهم لله.

ودلَّت هذه الآية، على أنَّ مَن لم يصبر، فله ضدُّ ما لهم، فحصل له الذَّمُّ من الله، والعقوبة، والضَّلال والخسار، فما أعظم الفرق بين الفريقين وما أقلَّ تعب الصَّابرين، وأعظم عناء الجازعين، فقد اشتملت هاتان الآيتان على توطين النُّفوس على المصائب قبل وقوعها، لتخف وتسهل، إذا وقعت، وبيان ما تقابل به، إذا وقعت، وهو الصَّبر، وبيان ما يعين على الصَّبر، وما للصَّابر من الأجر، ويعلم حال غير الصَّابر، بضدِّ حال الصَّابر.

وأنَّ هذا الابتلاء والامتحان، سُنَّة الله الَّتِي قد خلت، ولن تجد لسُنَّة الله تبديلًا وبيان أنواع المصائب»[1].

روى التِّرمذيُّ عَنْ أَبِي سِنَانٍ، قَالَ: دَفَنْتُ ابْنِي سِنَانًا، وَأَبُو طَلْحَةَ الخَوْلَانِيُّ جَالِسٌ عَلَى شَفِيرِ القَبْرِ، فَلَمَّا أَرَدْتُ الخُرُوجَ أَخَذَ بِيَدِي، فَقَالَ: أَلَا

(١) تيسير الكريم الرَّحمن للسِّعديِّ (ص٧٥).

أُبَشِّرُكَ يَا أَبَا سِنَانٍ؟ قُلْتُ: بَلَى، فَقَالَ: حَدَّثَنِي الضَّحَّاكُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَرْزَبٍ، عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِذَا مَاتَ وَلَدُ الْعَبْدِ قَالَ اللهُ لِمَلاَئِكَتِهِ: قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي، فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ، فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ، فَيَقُولُ اللهُ: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الجَنَّةِ، وَسَمُّوهُ: بَيْتَ الحَمْدِ**»(١).

وحظُّ كلِّ عبد من المصيبة ما تُحدِث له؛ فمَن رضي فله الرِّضا، ومَن سخِط فله السَّخط؛ مَن أحدثت له مصيبته سخطًا وكفرًا كُتب في ديوان الهالكين، ومَن أحدثت له جزعًا وشكايةً وتفريطًا كُتب في ديوان المُفَرِّطين، ومَن أحدثت له تسخُّطًا على الله وجرأةً على حكمة الله وتبرُّمًا من قضاء الله وقدره كُتب في ديوان الخاسرين، ومَن أحدثت له رضًا كُتب في ديوان الرَّاضين، ومَن أحدثت له صبرًا كُتب في ديوان الصَّابرين، ومَن أحدثت له شكرًا كُتب في ديوان الحامدين الشَّاكرين.

ومن أعظم ما ينبغي على العبد في هذا المقام -مقام الابتلاء والمصاب- أن يتعلَّم من هدي الإسلام والشَّريعة الغرَّاء ما ينبغي أن يكون عليه حال الابتلاء؛ وذلك أنَّ المصيبة لها ألمٌ وحرارة وشدَّةٌ ووجع، لكنَّ المؤمن إذا اهتدى بهدايات الإسلام وتحلَّى بآداب الدِّين وضوابطه سُلِّي في مصابه ونال

---

(١) وراه التِّرمذيُّ (١٠٢١)، وحسَّنه الألبانِيُّ.

الخير في الدُّنيا والآخرة؛ ولهذا يحتاج العبد أن يتعلَّم من هدي الإسلام ما يعالج به حرَّ المصيبة، وهدايات الإسلام في هذا بيِّنةُ المعالم واضحةُ الأمارات، والموفَّق من عباد الله مَن يُوَفِّقه الله جَلَّوَعَلَا للزومها والعناية بها عند المصاب.

ومن أعظم ما يعالج به حر المصيبة الصَّبر والاسترجاع؛ قال الله تعالى في السِّياق المُتَقَدِّم: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٦]، فهذا من أنفع العلاج وأعظمه أن يذكُر العبد حال مصابه أنَّه لله عبد وأنَّه إليه تَبَارَكَوَتَعَالَى راجع، فبذكر هذين الأصلين العظيمين يسلو عن مصابه مهما عظُم وكبُر.

وممَّا تعالج به المصيبة: أن يعلم العبد علم يقينٍ لا شكَّ فيه ولا ريب؛ أنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئه وأنَّ ما أخطأه لم يكن ليصيبه، ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد:٢٢].

وممَّا تعالج به المصيبة: أن يتأمَّل المصاب في مصيبته مقارنًا لها بغيرها من المصائب، فيجد أنَّ في مصائب الآخرين ما هو أعظم من مصيبته وأشدُّ فيسْلو بذلك.

ومن علاج المصيبة: أن يعلم أنَّ جزعه عند المصاب وتسخُّطه لا يردُّ شيئًا فائتًا ولا يحُول بين العبد وبين ما أصابه، بل لا يزيده جزعه وتسخُّطه إلَّا وهنًا وضعفًا وشدَّةً.

ومن علاج حرِّ المصيبة: أن يعلم العبد أنَّ ما يفوته من الثَّواب والأجر الَّذِي دلَّ عليه قول الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٧]، إن تسخَّط وجزع ولم يصبر؛ أعظم من المصاب نفسه.

ومن علاج حرِّ المصيبة رجاء الخلَف من الله عَزَّوَجَلَّ؛ فإنَّ مَن أصابته مصيبة فصبر واسترجع وفزع إلى الله ولجأ؛ أجاره الله جَلَّوَعَلَا في مصابه وأخلفه خيرًا، فعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ -مَا أَمَرَهُ اللهُ-: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا. إِلَّا أَخْلَفَ اللهُ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا**». قَالَتْ: فَلَمَّا مَاتَ أَبُو سَلَمَةَ، قُلْتُ: أَيُّ الْمُسْلِمِينَ خَيْرٌ مِنْ أَبِي سَلَمَةَ أَوَّلُ بَيْتٍ هَاجَرَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ. ثُمَّ إِنِّي قُلْتُهَا فَأَخْلَفَ اللهُ لِي رَسُولَ اللهِ ﷺ[(١)]. رواه مسلم.

ومن علاج حرِّ المصيبة: أن يعلم العبد أنَّه إن لم يصبر إيمانًا واحتسابًا وطلبًا لثواب الله جَلَّوَعَلَا؛ صبر بعد أيَّام من مصيبته ولا بُدَّ صبر اضطرار،

---

(١) مسلم (٩١٨).

ولهذا يقال: «مَن لم يصبر ويسلو في مصيبته إيمانًا واحتسابًا ورجاءً لموعود الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى سلا بعد ذلك سلوَّ البهائم»، وفي الحديث عن نبيِّنا ﷺ: «**إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى**»(١).

ومن علاج حرِّ المصيبة: أن يعلم العبد أنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لم يرسل تلك المصائب والابتلاءات ليُهْلِك بها عباده المؤمنين، وإنَّما أرسل ذلك وأنزله تمحيصًا للعباد وتمييزًا للصَّابر من الجازع؛ فينبغي على العبد أن يلحظ هذا المعنى ليكون من الصَّابرين الرَّاضين فيفوز بعظيم ثواب الله وجزيل موعوده جلَّ في علاه، وفي الحديث يقول نبيُّنا ﷺ: «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**»(٢).

ومن علاج حرِّ المصيبة أن يتأمَّل في أحوال النَّاس أجمع، وأن يُفَتِّش وينظر في أحوال النَّاس في العالم كلِّه؛ فإنَّه لن يجد فيهم إلَّا مَن هو مبتلى، فإنَّ سرور الدُّنيا كأحلام نوم أو كظلٍّ زائل، قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**مَعَ كُلِّ فَرْحَةٍ تَرْحَةٌ، وَمَا مُلِئَ بَيْتٌ حَبرَةً إِلَّا وَمُلِئَ مِثْلَهَا عَبْرَةً**»(٣).

---

(١) رواه البخاريُّ (١٢٨٣)، ومسلم (٩٢٦).

(٢) رواه مسلم (٢٩٩٩).

(٣) رواه وكيع في الزُّهد (٥٠٧)، وأحمد في الزُّهد (٩٠١).

ومن علاج حرِّ المصيبة أن يعلم العبد أنَّ في المحنة منحة، وأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قد يرحم عبده بما أصابه به، ومن ذلك: أنَّ العبد إذا استمرَّ في صحَّته وعافيته وكثرة أمواله رُبَّمَا داخله من الغرور والكِبْر والعجب ما يكون مهلكةً له، فإذا أنزل الله جَلَّوَعَلَا عليه المصاب في بدنه أو في ماله أو في شيء من أموره انكسر قلبه وخضع لربِّه وذهب عنه كِبْره وعُجبه، فسبحان مَن يرحم مَن شاء من عباده بالابتلاء.

ومن علاج حرِّ المصيبة أن يعلم العبد أنَّ مرارة المصيبة في الدُّنيا مع الصَّبر والاحتساب تكون حلاوةً عظيمةً يوم القيامة، ولأن يصبر العبد على مرارةٍ قليلةٍ زائلة ليفوز بحلاوة دائمة مستمرَّة خيرٌ له من أن تكون حاله على العكس من ذلك.

وإذا كان العبد في عافيةٍ وصحَّة وأمنٍ وأمان وسلامةٍ وإسلام فإيَّاه أن يغترَّ، وهل أهل البلاء اليوم إلَّا من أهل العافية بالأمس!!

رزقنا الله أجمعين الاتِّعاظ والاعتبار، وهدانا أجمعين إليه صراطًا مستقيمًا، وأصلح لنا شأننا كلَّه، وجعل كلَّ قضاءٍ يقضيه لنا خيرًا، وصلَّى الله وسلَّم على عبده ورسوله نبيِّنا محمَّد وآله وصحبه أجمعين.